الفصل السابع
مناهج المستشرقين

الانحراف العلمي هو طابع الكثير من الدراسات الاستشراقية حول الإسلام فالكثير من النظريات والآراء التي يقولون بها مبنية على افتراضات لا أساس لها وتخمينات لا سند لها[١].

ونسبة لأهمية التاريخ وأثره في الأمة اتجه المستشرقون إلى التاريخ حتى جاءت معظم أعمالهم في مجال التاريخ ونعني التاريخ بمعناه العام التاريخ السياسي والتاريخ الحضاري والاجتماعي وتاريخ الفرق والمذاهب والفكر والفن والعلم وتاريخ الرجال والطبقات ومعاجم البلدان وفي اهتمام المستشرقين بالتاريخ وتوظيفهم له واعتمادهم عليه لتحقيق مآربهم اتخذوا مناهج تؤدي بهم إلى ما يريدون[٢].

فهم في منهجهم يعتمدون على العقل وحده بل على المنهج التجريبي الذي لا يرى سوى الحواس مصدراً وحيداً للمعرفة[٣].

والاستشراق في دراسته للإسلام لا يصدر عن فكر حر منصف وإنما يندفع

---

(١) محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص٧٨-٨٩.

(٢) المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، الطبعة الأولى) قطر: رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية ١٤١١هـ) ص٥٨.

(٣) المرجع نفسه ص٣٤٤.

أساساً من الحقد والكراهية والحكم السابق على الإسلام أنه من صنع محمد ﷺ وأصحابه وأنه دين غير صالح لمجابهة أمور الحياة[١].

يعتمد جمهور المستشرقين في تحرير أبحاثهم عن الشريعة الإسلامية على منهج غريب بالغ الغرابة في ميدان البحث العلمي فمن المعروف أن العالم المخلص يتجرد عن كل هوى وميل شخصي فيما يريد البحث عنه ويتابع النصوص والمراجع الموثوقة فما أدت إليه بعد المقارنة والتمحيص كان هو النتيجة المحتمة التي ينبغي له اعتمادها والأخذ بها. إلا أن أغلب هؤلاء المستشرقين يضعون في أذهانهم فكرة معينة يريدون تصيد الأدلة لأثباتها، وحين يبحثون عن هذه الأدلة لا تهمهم صحتها بمقدار ما يهمهم إمكان الاستفادة منها لدعم آرائهم الشخصية، وكثيراً ما يستنبطون الأمر الكلي من حادثة جزئية ومن ثم يقعون في مفارقات عجيبة، لو لا الهوى والغرض والمرض لرأبوا بأنفسهم عنها، وكثيراً ما يعتمدون على الوهم المجرد لتفسير الأمور، ويقيسون المسلم الذي يؤمن بالله ويخشاه على الذين لا تردعهم روادع دين ولا خلق قويم ويعتبرون أن كل سلوك المسلمين أفراداً وجماعات لابد أن يفسر بالأغراض الشخصية والنوازع النفسية الدنيوية، وأن أي دافع ديني أخروي يبتغي به وجه الله لا وجود له عندهم إلى غير ذلك من موازين ساقطة في نظر أي باحث علمي يخلص للحقيقة ويحترم منطقه وعلمه[٢].

وأصبح منهج الاستشراق هو السائد في دول الغرب وعندما يتم إيفاد طلبة من البلدان الإسلامية إلى الخارج للحصول على مؤهلات جامعية عليا كالماجستير والدكتوراه في العلوم العربية كان المستشرقون ومنهم اليهود - يشرفون عليهم ويوجهونهم في أبحاثهم وكانوا يفرضون عليهم الموضوعات، ويأبون أن يدرس الطالب كما يريد وكانوا أيضاً لا يسمحون لأي طالب بالخروج عن الآراء الاستشراقية وبل يرفضون أن يهاجم الطالب هذه الآراء أو يناقشها أو يكشف عن زيفها وبطلانها، وترتب على هذا أن تبنت طائفة من المثقفين المسلمين آراء

(١) الإسلام والفكر الغربي، أحمد عبد الحميد الشاعر، الطبعة الأولى (القاهرة: دار الطباعة المحمدية ١٩٨٦م) ص٣٤٢.

(٢) عبد الرحمن حسن حنبكة، أجنحة المكر الثلاثة، مرجع سابق ص٩٩-١٠٠.

المستشرقين، أصبحوا حماة لها يزودون عنها ويدعون إليها، ولاسيما في مجال التدريس الجامعي، مما ينجم عنه ما يمكن أن يسمى بالاستشراق العربي، وهو بلا ريب أخطر من الاستشراق الغربي[١] والاستشراق في دراسته للإسلام لا يصدر عن فكر حر منصف وإنما يندفع أساساً من الحقد والكراهية والحكم السابق على الإسلام أنه من صنع محمد ﷺ وأصحابه وأنه دين غير صالح لمجابهة أمور الحياة[٢].

لقد ركز المستشرقون دراستهم على التاريخ الإسلامي وذلك لأهمية التاريخ تشمل دراستهم التاريخ الإسلامي بمعناه العام أي كل تحركات المجتمع في كافة المجالات، وكانت لهم مناهج تناولوا بها التاريخ الإسلامي ذلك أن التاريخ الإسلامي الذي اهتم به المستشرقون هو تاريخ المجتمع الإسلامي كله. وقد أورد الدكتور عبد العظيم محمود الديب في كتابه المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي دراسة عن منهجهم لدراسة التاريخ الإسلامي وأورد ملامح هذا المنهج من حيث الشكل ومن حيث الشروط والالتزام بالقواعد كما يلي:

١- المنهج من حيث الشكل الخارجي.

٢- المنهج من حيث الشروط والالتزام بالقواعد.

وفي النقطتين تفصيل يوضح كيف استخدم المستشرقون مناهجهم الخاطئة في النيل من الإسلام ومن التاريخ الإسلامي لتحقيق أغراضهم في محاولة التشويه والتشكيك في كل التراث الإسلامي. وهناك ملامح لمنهج المستشرقين من حيث الشكل الخارجي وهي:

أ- الاهتمام بالفرق والصراع بينها وعوامل نشأتها ومحاولة إثارة أخبارها ووضعها في بؤرة شعور المسلم ولدى الأمة الإسلامية، وتلك مكيدة كادها أسلاف لهم من قبل، حين جلس زيال اليهودي يحكي أخبار، يوم بعث بعاث حتى أوقد نار العداوة بين الأوس والخزرج من جديد وكادت تكون فتنة لولا أن تداركها النبي ﷺ.

---

(١) محمد الدسوقي، الفكر الاستشراقي، مرجع سابق ص٥٣.

(٢) أحمد عبد الحميد الشاعر، الإسلام والفكر الغربي، مرجع سابق ص٣٤٤.

ب- العناية بتاريخ الزندقة والزنادقة وإبرازهم في صورة أصحاب الفكر الحر وقادة الفكر وأن يقللوا ويزهدوا في تاريخ أبطال الإسلام الحقيقيين.

ج- القفز وراء التاريخ الإسلامي والاهتمام بالتاريخ القديم لأقاليم دار الإسلام إحياء للفرعونية والبابلية والآشورية والفينيقية ونحوها إثارة للنعرات الإقليمية وتمزيقاً لجسد الأمة الإسلامية. وقد بذلوا جهوداً مضنية في سبيل البحث والتنقيب والدراسة والإشادة بهذه الحضارات البائدة والتنويه بشأنها وإغراء كل إقليم بماضيه القديم.

د- تمزيق تاريخ الأمة الإسلامية، طولاً وعرضاً بتقسيمه طولاً إلى تواريخ أسر، الأموية والعباسية والمماليك.. الخ وعرضاً إلى تواريخ أقاليم لإثارة عوامل الفرقة ومظاهر الاختلاف ومؤكداً إياها ومذكراً بالصراعات والخصومات على حين الأصل في التاريخ الإسلامي أن يدرس - إذا أردنا دراسة علمية منهجية صحيحة - على أنه صراع بين المسيحية الشمالية المعتدية التي جاء الإسلام ووجدها مسيطرة على الشام ومصر والشمال الأفريقي واندحرت تحمل ذل الهزيمة ونار الحقد والثأر في قلبها ثم جهاد الإسلام لفتح الأندلس ومحاولات فتح القسطنطينية والدخول إلى قلب أوروبا، ولذا نشأت أجيال لا تعرف التاريخ الإسلامي إلا من خلال دراسة المستشرقين وتقديم سيئ لأنصع صفحات التاريخ الإسلامي بأسوأ طرح عرفه التاريخ الإسلامي وأصبح الجيل الإسلامي يمقت التاريخ الإسلامي ويتخيله ساحة مظلمة سيطر عليها الجهل والطغيان والقتل والظلم الاجتماعي[١].

هـ- اختزال تاريخ الإسلام والمسلمين: كتب كثيرة في تاريخ العالم أو تاريخ الحضارة الإنسانية تم تأليفها فكان مؤلفوها من الغربيين يختزلون تاريخ الإسلام والمسلمين اختزالاً يوحي بقيمته ومكانته في نفوسهم، بل يوحي بانحراف منهجهم وسوء قصدهم. أما منهجهم من استكمال شروطه والالتزام بالقواعد تتضح سماته والمآخذ عليه من ما يلي على وجه الاختصار:

---

(١) عماد الدين خليل، فصول في المنهج والتحليل ص١٩٧.

أ- الخضوع للأهواء وعدم التجرد ذلك لأن شرط المنهج الأول وأساسه التجرد من الأهواء، وعدم الوقوع تحت سلطانها وإذا لم يكن ذلك فهذا ليس علماً وليس بحثاً.

ب- عجز المستشرق عن تمثل الثقافة واللغة: من شروط المنهج إدراك اللغة والإحاطة بأسرارها وكذلك الثقافة وتاريخها وعقائدها... الخ وهذا لم يتوفر للمستشرق.

ج- التعسف في التفسير والاستنتاج: حيث يميل المستشرق بالنص مع هواه حتى ولو فهمه والأمثلة على ذلك كثيرة في كتابات المستشرقين.

د- التفسير بالإسقاط: وهو إسقاط الواقع المعاصر المعاش على الوقائع التاريخية الضاربة في أعماق التاريخ. يعمدوا إلى تفسير هذه الأحداث على ضوء خبراتهم وتجاربهم ومشاعرهم.

هـ- منهج العكس: وهو منهج بين الفساد وهو ما يسمى بالمنهج المقلوب حيث يضع الباحث النتائج مقدماً ثم يسوق البحث حسب هواه ليقوده إلى هذه النتائج يقول أحد المستشرقين الذين أسلموا: إن منهج العكس هو ذلك المنهج الذي يأتي إلى أوثق الأخبار وأصدق الأنباء فيلغيها معتمداً إلى عكسها.

و- التشكيك في الدليل القاطع والتعامي عنه: عندما يكون الدليل قائماً على الرأي أو الحكم الذي لا يوافق هوى المستشرق تجده يتعامى عنه ويتجاهله ويشكك فيه، حتى لو كان صحيحاً بين الصحة.

ز- التحريف والتزييف والإدعاء: ومن ذلك أن يعمد الكاتب إلى حذف كلمة من عبارة يستشهد بها أو يزيد كلمة أو يغير كلمة أو ينفي وجود نص موجود...الخ

ح- إصدار أحكام قاطعة بغير دليل أصلاً: ولهم مهارة فائقة في هذا المجال حيث يصدرون أحكاماً بصورة قاطعة لا تردد فيها ولا احتمال وفي جمل قصيرة وموجزة بدون حشو أو تطويل يوحون بذلك للقارئ أن المسألة مفروغ منها.

ط- الاختلاق والتمويه: مفهوم هذا أن الكاتب يشير إلى مصادر أخذ عنها

ورجع إليها وهي أساساً غير موجودة ولهم في ذلك أساليب وتمويهات[١].

منهج المستشرقين لتناول التاريخ الإسلامي العام منهج منحرف وفاسد وتكفي الأدلة التي تقدمت على فساد هذا المنهج وعدم موضوعيته من حيث الشكل وترتيب المواضيع الإسلامية ومن حيث أنه منهج غير ملتزم ولا قواعد له وهذا هو الأغلب في كتابات المستشرقين إذا استثنينا بعض الكتاب من المستشرقين الذين درسوا التراث الإسلامي دراسة علمية من أجل المعرفة العلمية والتعرف على الإسلام وهؤلاء أقلة.

(١) انظر عبد العظيم محمود الديب، المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي ص٥٩-١٢٠ بتصرف.